نحن في زمن يحتاج للعقول الكبيرة

ثمة موضوع يراود ذهني، تواجدت كلماته ومازالت.. في مكان ما في رأسي..تركته برهة.. ربما اكثر.. ربما لانني مازلت لاادرك زمام معانيه، او لم اع عظمته بعد..اجل اقول عظمته لاهمية مضمونه وتشعب مناحيه. فقد يجعلني اغوص بين ثناياه فلا اعطيه حقه ربما لكوني لست ضليعة كمثل جبابرة ممن يكتبون او لبعد اندراجي تحت عظماء القلم ممن يحملون الفكر الجاد، والاثراء الناجع، والادراك الواعي.. فهل عساي ان امسك بقلمي المتواضع فيساعدني مداده على التحدث عن فضل العلم وبيان صورته؟! او يمكنني تجاوز خجل الحبر، فاتمكن من رفع الستار عن اهميته؟. لاظن ذلك، ولكن لابأس ان اذكر ان ينبوع العلم قد انفجر منذ بزوغ فجر الرسالة المحمدية، واشراقة نور الاسلام على ارجاء هذه البصيرة.

فقد نادى ديننا الحنيف بالرؤية الشاملة لافاق العلم.. وطالب بضرورة التعلم وبين فضله في قوله جل شانه «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون» وايضا قوله تعالى «يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات» كلنا يعلم ان معين العلم لاينضب، وينابيعه لاتجف مهما ارتشفنا من مداره. ومهما بلغنا ذروته فهو المصدر الوحيد الذي يزداد كلما اخذنا منه، وكلما اقتنصنا شتى مناحيه، فكلما اوغلنا في جوانبه داهمتنا جوانب اخرى يزداد تعطشنا لمعرفتها.ومتى ما اقتربنا بتفكيرنا من العلم وابتعدنا عن ثياب الجهل نجد اصرارنا على ولوج ابوابه يجعلنا نقتحم اسواره بكل جدية ويسر مهما زمجرت تيارات الحواجز ومهما التفت حولنا سلاسل المتاعب واطواق المصاعب واشواك الشدائد والعجز.

نحن في زمن يحتاج لذوي العقول الكبيرة، المتفهمة، المدركة لجوانب العالم حولها.. وهذه لانظفر بها الا بالعلم المتواصل، والجهد الدؤوب لنملك القدرة على مواجهة تحديات العصر. افما آن لنا ان نعلم بمنزلة العلماء، الذين دعموا تيارات الفكر بعلمهم.. وفتحوا نوافذ الفكر والثقافة على امتهم، حتى تسعد بثقافات جديدة وافكار قويمة تنور بها عقول ابنائها بعصارة فكرهم وثمرة علومهم وخلاصة انتاجهم فيسهمون بها في تقديم الحلول الجذرية الناجعة لمشكلات العصر وازماته..

ويكفي ان اقتبس من القرآن الكريم ما يمجد منزلتهم وعلمهم كما في قوله تعالى «شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط، لا اله الا هو العزيز الحكيم».. «الآية» فيا نحن؟! ماذا يمنعنا من سبر اغوار العلم؟! كغيرنا.. ونفهم اسراره ونلج على الاقل ابسط ابوابه وايسرها.. بدل من تقوقع طموحنا وانحصاره في الطعام والشراب فنغدو وباء على مجتمعنا، حتى وان تعلمنا القليل او بلغنا نصف مشوار العلم فان التوقف يضربنا، فنصف العلم اخطر من الجهل كما يقال.. ويحلو لي ان ازود مقالي هذا بحديث العقاد اذ يقول: «من وقائع الحياة التي لاسبيل الى محوها التعلم ضرورة لازمة من ضرورات الحياة لكل فرد ينشأ بين ابناء نوعه، ولا يستطيع مهما بلغ جهده ان يستوعب محصول المعارف النوعية، خلال الاجيال المتعاقبة.. وشر زاد يتزوده الطالب الناشيء من معاهد التعليم ان يتعلم منها الاستخفاف بواجب التعلم، وهو اول واجب يصادفه في حياة الطفولة، ولن يستقر عنده رأي هو اسوأ اثرا في تربيته، وتكوين اخلاقه من ان يستكثر لجهد على المعرفة، وان يسقط عن كاهله تذليل الصعاب او يخطر له ان تذليلها مطلوب في كل مقصد غير تثقيف العقل، والاعتراف بالفضل لمن يتولى تثقيفه ومعونته على تنمية عقله وهو احوج ما يكون الى تلك المعونة».

فلندرك لانفسنا المسيرة التعليمية قبل ان يمضي بنا الزمن.. ولنعي اهميتها قبل ان نغرق في غياهب الجهل.. فنحن نعيش في زمن تتدفق منه ايام عصيبة، وتتلاطم فيه سنين غامضة.. فلنلجأ لسلاح العلم.. فلا امر ولا اشقى من تذوق مرارة الجهل، ولا اصعب من مرور لحظات ايامنا هباء من دون استزادة بقطرة علم، او الاستفادة من ينبوع معرفة. فما اجدرنا بتدارك صنيع من سبقونا من البشر.. ممن اصبحوا الان في مرتبة سامية.. منهم العلماء ومنهم المفكرون.. منهم الاساتذة والمثقفون، منهم حملة الفكر المجيد، والعقل الرشيد، والرأي السديد.. علماء افاضل .. ولا ينبغي ان ننسى تتويج علمنا باخلاق الدين السمحة.

فالعلم ان لم تكتنفه شمائل
لاتحسبن العلم ينفع وحده
فكم من عالم مد العلوم حبائلا
تعليه كان مطية الاخفاق
مالم يتوج ربه بخلاق
لوقعية وقطيعة وفراق

..كلمة اخيرة:

تنوير العقل لاياتي من التقاط حبوب الهامشية من العلم، من وسائل مسموعة او مرئية او حتى مقروءة.. فهي قد تساعدنا على اكتساب الثقافة.. ولكن لاتنجح في تنوير بصيرة العقل والقلب بالصورة المطلوبة التي يحتاجها المجتمع.. وانما ياتي من جهد جهيد في مواصلة مشوار العلم واستيعاب تركيباته كافة سواء الدينية او العلمية، او الثقافية، او الادبية والتاريخية وغيرها.. وغيرها الكثير.. لا تتسع لها سطور الصفحة لسردها.. لذا اكتفي بذكر بيتين من الشعر ينسبان للامام الشافعي رحمه الله.

علمي معي، حيثما يمت ينفعني
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي
قلبي وعاء له، لابطن صندوق
او كنت في السوق كان العلم في السوق

هند السويدي
جامعة قطر